ابن زيدون

﴿ أولية ابن زيدون ﴾

نزل بمدينة قرطبة رهط من بنى مخزوم من جهات المغرب فيمن نزح إليها من القبائل وكان بيت بنى زيدون من أكبر بيوتاتهم جاهاً وثقافة وأدباً وكان صاحب الترجمة احمد بن عبد الله بن احمد بن غالب بن زيدون أحد أغصان هذه الشجرة المباركة . ولد بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ . فى الوقت الذى تضعضعت فيه الحكومة المروانية فانقسم المسلمون على انفسهم وتخاذلوا واستعانوا بالأجنبى وصاروا شيعاً متعادين متعاندين .

وتقسموا ألقاب الخلافة فكان منهم المعتضد والمعتمد والمستعين والمقتدر والمعتصم والمؤتمن ... الخ ، يتشبهون فى ذلك بملوك المشارقة :

مما يزهدنى فى أرض أندلس ... أسماء مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها ... كالهرّ يحكى انتفاخاً صولة الأسد

فلا عجب اذا كثر الوزراء ، ولا عجب اذا سمعت بلقب ذى الوزارتين يتقلده الكثير والناس على دين ملوكهم — فى هذا الجو الغائم الواهن المتخاذل المرجف نشأ ابن زيدون .

﴿ مبلغ شهرة ابن زيدون ﴾

لقد أعجب رجال الأدب فى مختلف أقطار العالم بأدب ابن زيدون فاعترفوا له بثرائه العريض ومادته الخصيبة وتراثه الذى خلفه مفخرة للعرب والعربية . أدرك قومُه خطورةَ شأنه فأحلوه فى السويداء من قلوبهم وتربع منهم فى الصدور قبل أن يحل صدور المجالس ، وعاش بينهم موئل القاصد وركن الأدب الركين .

وكان من المحتم أن نسمع بتهافت الأدباء والمؤرخين على أدبه يدرسونه ، وشعره يعارضونه، ونثره يحاكونه، وتاريخه يترجمونه ، امثال ابن خاقان فى كتابه قلائد العقيان وابن نباتة المصرى فى كتاب سرح العيون وصاحب الذخيرة وابن غذارى المراكشى فى البيان المغرب والصفدى فى تمام المتون وابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار وغير هؤلاء .

وما كان الغرب فى حفله بالرجل وبأدبه دون العرب ثقة : فقد وقف كثير من رجالاتهم أنفسهم على درس كتابته وشعره لمّا بلغهم عنه من ذيوع الشهرة وخلود الأثر ، حتى اذا جاسوا خلال خمائله واستروحوا عبير أزاهره ذخروا منه لبلادهم فترجم له منهم : هندرك الهولاندى المختص بالعلوم اللاهوتية عن صاحب قلائد العقيان وكتبت لهذه الترجمة شروح وابحاث وطبعت فى ليدن سنة ١٨٣١ م . ، والعلامة دوزى تلميذ هندرك صاحب تاريخ مسلمى الأندلس ذكر أدب ابن زيدون فى كتابه وأكبر فيه نباغته ، والمستشرق بستورن الذى ترجم الرسالة الجدية إلى اللاتينية وبدأها بترجمة حياة ابن زيدون .

﴿ بيئة ابن زيدون ﴾

للبلاد الأندلسية فضلا عن موقعها الجغرافى ميزتها على غيرها من الأقاليم بوفرة الخيرات وانتشار الصناعات وتعاقب الدول ذات الحضارة والشأن عليها حتى صح فيها قول القائل :

فى أرض اندلس تلتذ نعماء ... ولا يفارق فيها القلبَ سراء
وكيف لا يبهج الأبصار رؤيتها ... وكل روض بها فى الوشى صنعاء
أنهارها فضة ، والمسك تربتها ... والخزُّ رَوْضتها ، والدر حصباء
قد ميزت من جهات الارض حين بدت ... فريدة وتولّى ميزها الماء

ناهيك بجناب مريع يخصب العقل ، وبساتين زاهية زاهرة تفتق الذهن وتنضج القرائح ، وعمارة مترامية الاطراف تبعث فى النفس الخيال البعيد ، وأنهار سلسالة تصفو لها الخواطر وتذهب فى أوديتها الأفكار ، وحضارة ومدنية ينفسح لهما مراد البلاغة وتسمو بصورهما المعانى الشعرية . وارتباط الوشائج وخلاط الناس ومايتطلبه

العمران من اجتماع وسياسة كل أولئك مناهل للشاعر والناثر لا يكاد يمعن فيها حتى يجد فسحة فى القول فتواتيه الحكم والامثال ويُفْتَن بمدرسته الحضرية فيخرج إليك بألوان متغايرة لمنازع الناس المتباينة ، وتجد ذلك النوع من الغزل المشرقىّ قد خلع عذاره وتجرد من قيوده فى الأندلس لأنه رأى حياة أمتع ونفوساً أروح ، وتجد الوصف الذى تناولهُ مختلف الشعراء منذ الجاهلىّ إلى أن يقع فى العباسىّ قد أصبح جديد الشباب فى بلاد الاندلس ، وحلبة الغواة العاكفين على الدعابة واللهو التى كان لا يخوض غمارها إلا الخليع الماجن من الشباب الشرقىّ الطائش اصبحت فى بلاد الاندلس أضاميم من لهاميم العرب يتصايح فيها الامير قبل الحقير .

من أجل ذلك ألفيت نابتة اندلسية تتعشق للجمال وتغرم بالوصف وتبدع فى الخيال وتصف مجالى الأنس والشراب وتأتى على ضروب السرور والنشوة بما لم يتلاحق بهم غيرهم فى هذا المضمار

مع هذه النابتة وبين هذا الشباب وفى هذه المدرسة نبت ابن زيدون فى بيت رفيع العماد لديه من الثراء والجاه ما يمكنه من استبطان اللذة ومن تقرب الناس إليه واختلاطهم به فكان زعيم الادباء وأديب الزعماء

﴿ منزلة ابن زيدون الأدبية ﴾

اشتغل بالادب ناشئاً فبرع فيه وبلغ الغاية فى النظم والنثر ولقد أطبق معاصروه على فواقه عليهم وسلموا اليه قياد الأدب بدولتيه ، ولا أدلّ على ذلك من قول ابن بسام : « كان ابو الوليد غاية منثور ومنظوم ، وخاتمة شعراء بنى مخزوم . فاق الأنام طُرّاً ، ووسع البيان نظماً ونثراً ، إلى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقترانه ، وخط من النثر غريب المبانى ، شعرى الألفاظ والمعانى » . يحكى من سعة بيانه أن ابنته توفيت فوقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليتشكر لهم فما أعاد عبارة قالها لاحد . وهذا عجيبٌ ، ولا سيما من مخزون فقد قطعة من كبده .

﴿ حياته ﴾

قضى ابن زيدون شطر حداثته الاول فى قرطبة مولعاً بالادب عاكفاً على الاطلاع ، فسما به أدبه الى مقام كان فيه مضرب المثل فى البلاغة . فكان يرجع اليه

فى كتابة أعمال العظماء وظلامات ذوى الحاجات الى الولاة ، ومن ثم نبه ذكره الى أن اتصل بالوزير ابن جهور ولقب بذى الوزارتين ، وما كان ليتسامى الى مقامه إلا لتسامى أدبه حتى دعاه أدباء قومه ببحترىّ الاندلس تشبيهاً له ببحترى المشرق .

ولقد هام بحب ولادة بنت المستكفى الخليفة الأموى وكانت برزة أديبة شاعرة عمرت طويلا ولم تتزوج . وقد ابتذل حجابها بعد موت أبيها فتحبب اليها الأمراء والكتاب وكانت على خلق جميل يشهد لها بالعفة المؤرخون كلهم .

وكان من صرعاها ابن زيدون ولها معه طرف وملح ، لانه كان حظيها قبل غيره . وكانت تقوم المنافسة بين عشاقها أدبية علمية ، كل يكد خاطره ويهذب قوله ليكون حظيظها . وقد أفلح ابن زيدون فى استمالتها اليه أو بالحرى أفلح أدبه فى أن يأخذ عليها اعجابها قبل غيره ولا سيما معارضه فى حبها الوزير أبو عامر بن عبدوس الملقب (بالفار) ، إذ تمكن ابن زيدون من إقصاء خصمه بقارس قوله وزاجر شعره فكانت تشمس منه كلما تسقط القرب منها وتدلّ عليه وتتهزأ به . ولقد مرت عليه وهو فى هالة من حاشيته أمام داره يتنادرون ويسمرون وكانت قرابة داره بركة آسنة المياه فنادته باسمه فتطلق وجهه ونهض يحييها فأنشدته قول أبى نواس وهى تشير الى البركة :

أنت الخصيب وهذه مصرُ فتدفّقا فكلاكما بحرُ !

ولقد قدمنا لك أن ابن زيدون نشأ فى جوّ الانحلال السياسى ـ الجو المغرض المتملق الذى لا تستتبّ دولته الا على النفاق والمالأة . من أجل هذا كان الرجل محسوداً على منزلته فزجته السعاية به الى غيابات السجون مغضوباً عليه من مولاه ابن جهور ، وعبثاً حاول التنصل مما ألحق به ولم يغن عنه الاعتذار والاستتابة وضرب الامثال والحكم من غضب ابن جهور شيئاً . حتى اذا أمضى بضع سنين فى السجن تحين الفرصة وخرج من السجن هارباً وتخفى مدة كان فى خلالها يحاول الاتصال بحاكم اشبيلية المعتضد وذلك بعد أن يئس من استرضاء ابن جهور واستعتابه بلداته وخاصته . وحين مهد لنفسه اتصاله بابن المعتضد رحل الى اشبيلية وأقام هناك وزيراً شطره الثانى من حياته شاغلا مثل مقامه السياسى والادبى فى وطنه الاول . وكان يحنّ الى مسقط رأسه الفينة بعد الفينة ويتذكر أيامه الميامين الغرّ مع ولادة فتفيض نفسه بفرائد الادب وتظهر فيها اللوعة والحسرة على ما فقد حتى وافته منيته وهو سفير المعتمد سنة ٤٦٣ هـ .

﴿ كتابته ﴾

كان ابن زيدون رجل ثقافة مضطلعاً بمختلف العلوم متأدباً متهذباً وهو مع غزارة علمه وأدبه وصفاء قريحته وقوة سليقته يميل إلى التأنى والروية فلم تكن كتابته عفو الخاطر ولا مَبْعثاً للوجدان الثائر . والبديهة البادهة انما كان لباب مصاص التأنق والتمكث ، ووليد الذوق السليم والطبع الحصيف. واذا علمت كيف كان ابن زيدون مليئاً بالعلوم، واقفاً عند عامة الحوادث قديمها وحديثها ، آخذاً من كل فن بطرف ، امكنك أن تقدر للرجل بعض قدره وأن تدرك سرّ اجادته وتخيره للحوادث التاريخية يضمنها كلامه ويوشى بها عباراته فتلتئم وتتآلف حتى لتُحسَّ أنَّما سيقت هذه الحوادث وتلك الامثال وهاتيك الحكم ليتمثل بها ابن زيدون فى كلامه بداءة . يظهر ذلك بوضوح حين تقرأ له من رسالته الجدية ما يستعطف به ابن جهور وهو سجين مغضوب عليه ، وهو :

« حنانيك قد بلغ السيل الزبى ، ونالنى ما حسبى به وكفى . وما أرنى لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت، وقال لى نوح اركب معنا فقلت سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، وامرت ببناء صرح لعلى أطلع إلى إلـه موسى ، وعكفت على العجل، واعتديت فى السبت ... » حتى اذا أتى على آخر ما ذكر من حوادث قال : « لكان فى ما جرى على ما يحتمل أن يكون نكالاً ويُدعى ولو على المجاز عقاباً ».

﴿ ابن زيدون الناقل ﴾

على أن الدارس لكتابة ابن زيدون يرى ميزة قلَّما ينهجها غيره فاحتسبت من حسناته . ذلك أنَّه لكثرة حفظه ودرسه كان يأتى بمعظم قوله منقولا بمبناه أو بمعناه عن غيره بغير أن يتكلف النقل ولكنك لا تحس إلا أنَّ هذا قد تناول كلام غيره فَلفَّه فى ديباجةٍ من بلاغته ، وحَلاَّه ونمنمه بقريحته الصناع ، فأخرجه للناس فى طراز مبتكر جديد . ومن الغبرة لكاتب كابن زيدون واهتضام لحقه أن يقال إنه كان نَقَلة لغيره دون أن يعول على نفسه فيما يقول ، بل إن مثله ليحفل بالمعنى يواتيه فى مقام فيملكه استلطاً وقلائد ثم هو بعد يرتاح الى نفسه حين يشعر أنه صائغ ماهر.

وكم كان يأتى بالمبدع نادر المثال مما عدَّه الأدب من تراثه وحده فله من تراثه رسالته الجدية يمدح ابن جهور :

« وهـل لبس الصباح إلا برداً طرّزته بفضائلك ، وتقلدت الجوزاء إلاّ عقداً فصلته بمآثرك ، واستملى الربيع إلاّ ثناءً ملأته من محاسنك . . . »

﴿ عنايته بالازدواج ﴾

وإذ كان الرجل أندلسياً رقيقاً مجيداً فى الوصف كسائر معاصريه كان لايعنى بالسجع بل بالازدواج بحيث يمثل المعنى المفرد بعبارات متباينة متنوعة متفاضلة فى الجودة وقوة السبك وشدة الأثر فتراه يقول :

« إن سلبتنى أعزك الله لباس نعمائك وعطلتنى من حـلى إيناسك وأظمأتنى إلى برود إسعافك ونفضت بى كف حياطتك وغضضت عنى طرف حمايتك بعـد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك وسمع الاصم ثنائى عليك وأحس الجماد باستنادى إليك فلا غرو قد يغصّ الماء شاربه ويقتل الدواء المستشفى به ... »

﴿ ابن زيدون صفوح ينسى الاساءة ﴾

وكم يملأ نفسك إعجاباً بكتابة الرجل واكباراً لأخلاقه حيث تراه صفوحاً ناسياً اساءة ابن جهور اليه وهو يخاطب صديقاً له :

« رب مجتهد ما خاب الا لانه جاهد ، والله لقد أظهرت مدحه وأضمرت نصحه، وتممت على الصاغية له ، وجريت ملء العنان الى الاعتلاق به ، أسقيه السائغ من ميـاه ودى وأكسيه السابغ من برود حمدى ، وأجنيه الغض من ثمرات شكري ، واهدى اليه العطر من نفحات ذكرى ، لا يفيد منى التحبب اليه الا ضياعاً لديه ، ولا يزيدنى التقرب منه الا بعداً عنه ... »

وإذ قد وقفت على تمكن ابن زيدون من نثره الجـدى وبلوغه الغاية فى جميع نواحى القول التى طرقها فلا تنسى الى جانب ذلك أنه كان حـديد اللسان بذيئه سبق ابن عبدوس فأخمه برسالته الهزلية التى طبقت المشرقين وتناقلتها العصور الأدبية وهى شديدة الحفل بها وبقائلها توضح غامضها مرة وتترجمها أخرى.

ومنها :

« إنك راسلتنى مستهدياً من صلتى ماصفرت منه أيدى أمثالك ، متصديا من

خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك ، مرسلا خليلتك مرتادة ، مستعملاً عشيقتك قوّادة ... »

ومنها :

« ان قارون أصاب بعض ما كنزت ، والنطف عثر على فضل ما ركزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ما شيتك ، والاسكندر قتل دارا فى طاعتك ، واذدشير جاهد ملوك الطوائف بخروجهم عن طاعتك ، والضحّاك استدعى مسالمتك ، وجذيمة الأبرش تمنى منادمتك » إلى أن قال : « وانك المقول فيك كل الصيد فى جوف الفرا

وليس على الله بمستنكرٍ أن يجمع العالم فى واحدِ »

﴿ شعره ﴾

قد يذهب بك الحدس الى أن ابن زيدون كان طلعه استنفد وقته فى المدارسة والبحث ولم يجد من الفراغ واللهو والمجانة وألوان الحياة ما ينمى به شاعريته . ولكن حدثاً غريباً قد فتح مغلق قلب ابن زيدون واستدعاه فأجاب داعيه : ذلك هو حب ولاّدة له وخلاطها به ومنافسته غيره من الأدباء والشعراء له فى حبها . كل اولئك عوامل جعلت من الرجل الضليع فى النثر ضليعاً فى الشعر ، ذلك بأن غادته إنما أغرمت بأدبه قبل ان تغرم بدلّه وشكله ، ولذلك حبته دون غيره من رصفائه بقربها منه ، فكان عند ظنها به رشيقاً فى شعره سلساً فى عبارته مجيداً فى قوله : إذا نسب خلته صاحب بثينة ، واذا مدح أربى على شاعر مزينة ، فكأنما صيغ شعره من التبر ، وفضل فى نضارته الزهر ، وكلامه على الجملة يشهد له بجودة الطبع وإتقان الصنعة فتراه يقول :

بينى وبينكِ مالو شئت لم يضعِ ... سرٌّ إذا ذاعت الأسرار لم يُذَعِ

يا بائعاً حظَّه منى ولو بُذلتْ ... لىَ الحياةُ بحظى منه لم أبعِ

تِه أحتملْ واستطل أصبر وعزَّ أهنْ ... وَوَلٌّ أقبلْ وقل أسمَع ومُرْ أطعِ

﴿ غزله ﴾

قدمنا لك أن باعثاً خطيراً كان اكبر العوامل على إخصاب شاعرية ابن زيدون وافساح مجال القول له : ذلك هو هيامه بولاّدة وذوبه فى حبها وارساله الشعر الذى يختلط بالروح رقةً وبالهواء لطفاً يستديم عهدها . فكانت العاطفة تملى عليه ، فيكتب خلجات نفسه ، ويبعث اليها بافلاذ قلبه ، ومن قوله إذ ذاك :

أخـذتِ ثلث الهوى غصباً ولى ثلث ... وللمحبين فيما بينهم ثلثُ !
تاللهِ لو حلف العشاقُ أنهمُ ... موتى من الوجد يوم البين ما حنثوا!
قوم إذا هجروا من بعد ما وصلوا ... ماتُوا فإن عاد من يهوونه بُعِثوا !

ومن قوله حين ودع ولاّدة ذات يوم مرتجلا :

ودّع الصـبرَ محبٌّ ودّعكْ ... ذائعاً من سِرِّه ما استودعكْ
يقرع السن على أنْ لم يكن ... زاد فى تلك الخطى إذ شيّعكْ
يا أخا البدر سـناءً وسناً ... حفظ الله زماناً أطلعكْ
إنْ يطل بعدك ليلى فلكم ... بتُّ أشكو قِصرَ الليل معكْ !

ومَن لرجالات الشعر الغزلين أن يأتوا بمثل نونية ابن زيدون التى تهافت كبراء الأدب على معارضتها فى حياته وبعد مماته أمثال أبى بكر بن الملح والصفدى وصدر الدين بن الوكيل وغيرهم فما تلاحق بركابه شاعر ، ومنها :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
إن الزمان الذى ما زال يضحكنا ... أنساً بقربكم قد عاد يُبكينا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا ... بأن نُغَصّ فقال الدهر : آمينا !
فانحلّ ما كان معقوداً بأنفسنا ... وانبتّ ما كان موصولا بأيدينا
بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا
حالت لفقدكمُ أيامُنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً لياليا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والسعد قد غضّ من أجفان واشينا
سِرّان فى خاطر الظلماء تكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يفشينا !

﴿ عتبه ﴾

ونرى الشاب ابن زيدون حتى يساجله ابن عبدوس حبّ ولادة يعتب عليه منازعته له قلب محبوبته ولكن فى عظمة وفخر فتراه يقول له :

أثرتَ هزبر الشرى إذ ربضْ ... ونبهته إذ هدا فاغتمضْ
أبا عامر ! أين ذاك الوفاء ... إذ الدهر وسنان والعيش غضّ ؟
حذارِ ! حذارِ ! فإن الكريم (م) إذا سيم خسفاً أبى فامتعض

على أنك ترى له لوناً آخر فى عتبه حين ضعضعته الحوادث وهدمته غيابة السجن

فاذلت من كبريائه وطامنت من نفسه ... تراه فى حاله هذه يعتب فى خضوع وخنوع على ابن جهور فى اسلوبٍ من الاستعطاف والاسترحام يقول له :

أيهـذا الوزير هأنا أشكو والعصى بدء قرعها للحليم
وثواء الحسام بالجفن يثنى منه بعد المضاء والتصميم
أقصيرٌ مئين خمس من الأيـام ، ناهيك من عذابٍ أليم ؟!

ثم ترى له شذرات من قصيدة فى هذا المعنى بعث بها الى مولاه فى ذيل رسالته الجديّة :

وإنى لتنهانى نهاىَ عن التى أشار بهـا الواشى ويصقلنى عقلى
أأنقض فيك المدح من بعـد قوة فـلا اقتدى إلا بناقضة الغزل
هى النعل زلت بى فهل أنت مكذب لقيل الأعادى انها زلة الحسل ؟
ألا إن ظنى بين فعليك واقف وقوفَ الهوى بين القطيعة والوصل !

﴿ التصبر وادخال السلوى على نفسه وترقب الفرج ﴾

وما كان ذلك العقل الوفير والنفس العظيمة والعلم العليم ليعدم فى محنته عزاء له فكان خياله يرفّـه عنه فى بلواه ، وكان بصره بمواقع الخطوب والمامه بحوادث الزمن يواسيانه فى محنته ، فيتمنى ويتشكى ويذكر الامثال التى تبعث من نفس كليمة مرزوءة ثم يرجع على نفسه يواسيها ويتعلل بالأمل :

إن قسا الدهر فللمـا ء من الصخر انبجاسُ
ولـئن أمسيتُ محـبو سـاً فللغيث احتبـاس
ويفتُ المسك فى الـتر ب فيـوطا ويُـداس

وما ألطف وصفه لنفسه ووشاته حين يقول :

كان الوشاةُ وقد منيت بفكهم أسباط يعقوبٍ وكنتُ الديبا !

وما أحكمه حين يقول :

ما على ظنىَ باسُ يجـرح الدهر وياسُـو
ولقـد ينجيكَ إغفـا لُ ويرديك احـتراس !

﴿ وثوق الرجل من نفسه ومعرفتـه لقيمته الادبية ﴾

ولقد يغرّ الكاتب الغرّ بقوته فيتمطق بنفس ذهابة عن قدرته ويذهب الناس على إثره فى تنقصه . أما ابن زيدون فما أحراه بعد أن فرغ من معرفة أقدار الناس

ومنازلهم أن يتحدث عن نفسه حديث الواثق منها المتطمئن لمبلغ اجادتها إذ يقول :

أحين رفّ على الآفاق من أدبي ... غرسٌ له من جناه يانعُ الثمر
وسيلة سبباً إلا تكن سبباً ... فهو الوداد صفاء غير ما كدر

وكأنه رأى أنه نال من قيمته الأدبية فأنزلها دون منزلتها فتحدث الى التاريخ يستوحيه أن يحتفظ بتراثه والى أهل الأدب ان يعنوا به فقال :

سيُعنَى بما ضيعت منيَ حافظ ... ويعلى لما أرخصت من خطرى مُعْلِ

﴿ هجاؤه ﴾

أمّا هجاؤه فكان مرّاً لاذعاً ، يدلك على مبلغه فوق ماتقدم ذكره فى رسالته الهزلية ما تراه له يخاطب به ابن جهور قائلا :

لا تخش لائمتى بما قد جئته ... من ذاك فىّ ولا توقّ عقابى
لم تخط فى أمرى الصواب موفقاً ... هذا جزاء الشاعر الكذّاب!

وتراه فى ذمه لابن عبدوس (الفار) يمعن فى هجائه ويدفع التهمة عن نفسه بقوله :

عيّرتمونا بأن قد صار يخلفنا ... فيمن نحبّ وما فى ذاك من عارِ
أكلُّ شهمٍّ أصبنا من أطايبه ... بعضاً ، وبعضاً صفحنا عنه للفارِ!

﴿ حسن الاعتذار ﴾

وما إن تقف لهذا الشاعر العالم المطلع على اعتذاره حتى تؤخذ لتصرفه وتمكنه وحسن تخلصه من الحوازب :

وهلا جنيت الأنس من وحشة النوى ... وهوْل السرى بين المطية والرحل؟
وأين جوابٌ منك ترضى به العلا ... إذا سألتنى عنك ألسنة الحفل؟

ولقد تعترف للرجل بمكانته السامية وتكبر من خطره حين يخرج بك من اللوم عليه الى كيل المدح والثناء له حيث يقول مادحاً المعتمد بن عباد بعد ان مدح ابن جهور قبله :

مهما امتدحتُ سواك قبلُ فإنما ... مدْحى الى مَدْحى لك استطرادُ
يغشى الميادينَ الفوارسُ حِقْبةً ... كيما يعلمها النزالَ طِرَادُ

تنظر كيف كان منه هذا التنصل الحسن إذ وقف نفسه على المدح فمرن فيه حتى إذا أجاد أهدى ثمرة مدحِه الى الممدوح ؟

محمد رزق الرشناوى